(٣٤)

مسكينة

هى(١) كلية الآداب ، وإن شئت فقل هى الجامعة ، وإن شئت فقل كل مصلحة من مصالح مصر فى هذا العهد السعيد الذى يشرف على أمورنا فيه وزراء يرعون مصالح البلاد حقا ، ويعنون بآمالها ومستقبلها حقا ، ولا يبخلون على مرافقها بجهد ولاقوة . ولا يضنون على رقيها من المال بقليل ولا كثير .

مسكينة كلية الآداب فقد قص جناحها حتى لم يبق فيه ريش ! وقد ثقلت عليها الأغلال والقيود حتى ما تستطيع حركة ! وقد أخذت عليها

---

(١) ٢٢ — ٤ — ١٩٣٣ عدد ١٣٧١

منافذ للضوء والهواء حتى ما تستطيع تنفسا ولا حياة صالحة . ولولا أن مصر لا تعرف اليأس ، وأن الأيام السود مهما يشتد سوادها ؛ فهى ماضية منقضية مع طلوع الشمس وغروبها ؛ وأن ما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال . لولا هذا كله لقلنا للمصريين : أعظم الله أجركم فى كلية الآداب !

لقد أفكر فأطيل التفكير ، وأروى فأنعم فى التروية ، وأؤول فأذهب فى التأويل مذاهب شتى ، ولكنى لا أستطيع أن أفهم هذه الحرب المنكرة التى ما تزال تشب على كلية الآداب من الجامعة ، ومن وزارة المعارف ، ومن الحكومة والبرلمان .

كان فى كلية الآداب رجل كرهته الحكومة وأقصته عنها ، وزعمت أنها بذلك قد خدمت الجامعة ونصحت لها ولكلية الآداب ! فكان من المعقول بعد أن أقصى هذا الرجل عن كلية الآداب وعن الجامعة أن لا تلقى كلية الآداب من الجامعة ومن الحكومة نكرا ولا شرا . وأن لا تصلى كلية الآداب من الجامعة والحكومة نارا ولا عذابا ؛ ولكن النكر ما يزال يصب على كلية الآداب ، ولكن الحرب ما زالت تشب على كلية الآداب . فماذا جنت هذه الكلية البائسة ؟ وما هذا الحقد الذى يملأ عليها قلوبا ، ويؤجج حولها لهيبا ، ويجعلها غرضا للسهام وهدفا للأحداث ؟ إلى أين تمضى ؟ إلى أمام أم إلى وراء ؟ لقد استكثروا على الجامعة الاستقلال فمحوه وأتوا عليه . أفهم أنهم يستكثرون(١) علينا العلم أيضا ؟ أفهم أنهم يستكثرون علينا حتى الثقافة الخالصة ؟ أفهم أنهم يأبون علينا إلا أن

---

(١) أرسلت وزارة إسماعيل صدقى ثلاثة طلاب إلى أوربا لدراسة فقه اللغة وذلك فى عام ١٩٣٣ وهم : عبد الحليم على محمد النجار من الأزهر ، وابراهيم أحمد من دار العلوم ، وعبد الحميد عبد السلام الدواخلى من كلية الآداب ، بعد إجراء امتحان نجح فيه هؤلاء الطلاب .

نرد إلى الجهل بعد العلم ، وإلى الظلمة بعد النور ؟ أفهم أنهم يأبون أن يحكموا إلا شعبا جاهلا لا يستطيع أن يفهم ، ولا أن يفقه ، ولا أن يقدر ما يراد به . وكيف يبيح المصريون لأنفسهم أن يعينوا على هذا الشر ويغمسوا أيديهم فى هذا الإثم العظيم ؟ لقد أنشئت كلية الآداب واسعة ، شديدة العناية للدرس العلمى ، فلم تكد تنشأ حتى جدت فى توسيع أفقها ، وتعميق الدرس العلمى فيها . وفتح أبواب للثقافة لم تكن قد فتحت فى مصر من قبل . ومضى المصريون معها فى طريقها هذه فرحين مستبشرين ، يدفعهم الأمل إلى أمام ، ويشجعهم الفوز على المضى ، فما بالهم يردونها اليوم عن طريقها ردا عنيفا ؟ وما بالهم يغلقون هذه الأبواب التى كانت مصر تنتظر منها الخير كل الخير ، والتى كانت وحدها سبيلنا إلى أن ندانى الغربيين فيما انتهوا إليه من رقى ، ونستغنى بعد ذلك عن معونتهم لنا ، ونستقل بعد ذلك بأمور التعليم فينا ، ونرفع بعد ذلك أدبنا العربى إلى حيث ينزل منزلة الكرامة بين الآداب . أهذا كله ليس شيئاً إلى جانب خمسة آلاف من الجنيهات تقتصد فى خزانة الجامعة أو فى خزانة الدولة ؟ فما بالهم لا يقتصدون هذا المبلغ من إعانة الأجانب الممثلين والراقصين ؟ أيهما أهون على مصر : إلغاء التمثيل فى الأوبرا أم تعطيل الدراسة فى كلية الآداب ؟ أيهما أهون على البرلمان : أن تغلق ذار للرقص والغناء ، أم أن نضيق دارا للعلم والتعليم ؟ وأى علم وأى تعليم ؟ أمس أنواع العلم بقديمنا وحديثنا ، وأشد أنواع التعليم اتصالا بقوميتنا ؟

بين يدى الآن هذا القانون الذى أقره البرلمان ، والذى الحق به ثبت الكراسى التى أقرها القانون فى الجامعة . ويكفى أن تنظر فى هذا الثبت لتحزن وتأسى ، ويكفى أن تنظر فى هذا الثبت لتتكلف جهدا شديدا تنفى به ما يهاجمك من الجزع ويغمرك من اليأس ، حين ترى إساءة المصريين إلى المصريين .

كانت كراسى كلية الآداب أربعة عشر أو خمسة عشر ، فردت فى القانون الجديد إلى تسعة . وهل تدرى أى الكراسى ألغى ؟ كرسى فقه

اللغة العربية ، فستدرس إذن آداب اللغة العربية فى كلية الآداب دون أن تدرس فيها اللغة وفقهها . وألغى كرسى اللغات السامية فستصبح إذن دراسة اللغات السامية فى كلية الآداب دراسة ثانوية إضافية ، وستصبح تكميلا بعد أن كانت أساسا ، وستصبح فرعا بعد أن كانت أصلا ، وستظل لغتنا مجهولة فى كلية الآداب كما هى مجهولة فى غيرها من معاهد العلم ، وسيظل علمنا باللغات السامية محدودا فى كلية الآداب ، كماهو محدود فى دار العلوم . وستظل قوميتنا العربية ناقصة أبشع النقص من هذه الناحية ، وسنظل عيالا على المستشرقين الأوربيين كما كنا من قبل فى لغتنا العربية ولغاتنا السامية الأخرى .

وألغى كرسيان من كراسى التاريخ ، فلم يبق لهذا العلم إلا كرسى واحد ، يكون مرة للتاريخ القديم كما هو الآن ، وأخرى للتاريخ الحديث ، وثالثة لتاريخ القرون الوسطى . وسيعود درس التاريخ فى كلية الآداب مشوها ممسوخا سطحيا كما كان فى مدرسة المعلمين .

وألغى كرسى الدراسات اليونانية واللاتينية ، وأصبحت دراسة هاتين اللغتين صورة من الصور ، وشكلا من الأشكال ، ومظهرا من المظاهر ، يخدع الأبصار ، ولا يدل على شىء . وسيظل المتحف المصرى محتاجا دائما إلى الأجانب يدرسون فيه الآثار اليونانية والرومانية . وسيظل تاريخنا فى أيام اليونان والرومان ، وفى أول العصر الإسلامى مقصورا دائما على الأجانب ، يدرسونه ويؤلفون فيه ، وسنظل عيالا على الأجانب فى هذا كله ، وسيظل علمنا بالآداب الأوربية الحديثة محدودا مقصورا على الظواهر والقشور ، لأن حكومتنا أرادت أن تقتصد ألف جنيه فى كل عام .

ألغيت هذه الكراسى كلها من كلية الآداب فى القانون الجديد ، ولا بد من أن يعدل نظام الدروس وبرنامجه تعديلا يلائم هذا الإلغاء ، ولا بد من أن يهدم هذا البناء الذى أقامته مصر فتعبت فى إقامته ، والذى بدأ

يؤتى ثماره طيبة ناضجة ، ولا بد من أن ترد كلية الآداب مدرسة كغيرها من المدارس التى ألفتها وزارة المعارف ، والتى يستطيع الانجليز أن يرضوا عنها دون غيرها . ولقد يكون من الحق على أن أسجل أن هذا الإلغاء ليس أمراً طارئا فى هذه الأيام ، وإنما هو أمر دبر منذ عهد بعيد ؛ وكانت لى فيه مشادات مع جماعة من كبار الموظفين ، لا أحب أن أذكرهم الآن . وكانت لأستاذنا الجليل لطفى السيد بك فيه مواقف مع هؤلاء الموظفين ، ولكنى كنت أعتقد أن خروج الأستاذ لطفى من الجامعة ، وخروجى من كلية الآداب سيردان الأمر إلى نصابه ، وسيصرفان الشر عن هذه الكلية البائسة . وكنت أظن أن محاولة العبث بهذه الكراسى قد كان فنا من فنون سياسة الاحراج تلك التى كان يراد بها اضطرار مدير الجامعة السابق وعميد كلية الآداب إلى الاعتزال ، فإذا الأمر أشد من هذا كله خطراً . وإذا الأمر مكر بالتعليم العالى فى مصر ، وإذا الأمر كيد قد دبر لكلية الآداب من الذين يعجزون عن أن يفهموا كلية الآداب ، ومن الذين يشفقون من تأثير كلية الآداب فى تكوين الشباب وإذاعة الثقافة العالية فيه .

على أنى إن لمت فى ذلك أحدا فلن ألوم وزير التقاليد ، ولا رجال وزارته ، فهم أعجز من أن يفهموا كلية الآداب ما هى ، وكيف تكون ! ولا ألوم الانجليز فهم أمهر من أن يدعوا فى مصر كلية الآداب تفتح للشباب أبواب الأمل وتسلك بالشباب طريق الحرية والاستقلال . وإنما ألوم الجامعيين الذين يدعون الحكومة تقص أجنحتهم بعد ما نبت فيها الريش ونما دون أن يبصروها بمواضع الخطر فى هذا الأمر . كيف يستبيح الجامعيون لأنفسهم أن يروا كلية من كليات الجامعة يمر بها هذا المنكر ، ويكاد لها الكيد ، فينظروا ثم لا يقولوا ؟ أترضى كلية الطب بأن الحكومة لم تبخل عليها بما أرادت من الكراسى فمنحتها منها ما شاءت ، وكلية الآداب يلغى(١) ثلث كراسيها إلغاء ؟ أترضى كلية الحقوق بأن

---

(١) لقد عاش طه حسين حتى رأى الكراسى تلغى كلها لأنها عقبة فى طريق ترقية المدرسين .

الحكومة قد منحتها ما أحبت من الكراسي فجعلت منها ستة عشر كرسيا ، منها أربعة للقانون المدنى . وثلاثة للاقتصاد السياسى ، ولم تجعل فى كلية الآداب إلا تسعة من أربعة عشر ، بينها كرسى واحد للغة العربية ، وكرسى واحد للتاريخ .

أترضى كلية العلوم أن يكون فيها كرسيان للكيمياء . وفى كلية الآداب كرسى واحد للغة العربية ؟ وأن يكون فيها كرسيان للرياضة ، وفى كلية الآداب كرسى واحد للغة العربية ؟ وأن يكون فيها ثلاثة كراسى لعلم الحيوان . وفى كلية الآداب كرسى واحد للغة العربية وكرسى واحد للتاريخ ؟ أين التضامن الجامعى ؟ ! أيجب علينا أن نسجل أن هذا العهد السعيد قد محا التضامن الجامعى . فاكتفت كل واحدة من الكليات بما أصابت من الكراسى وتركت كلية الآداب للحكومة تضطهدها كما تشاء ؟ أيجب أن نسجل أن الجامعة قد فقدت تضامنها فتركت كلية الآداب نهبا للعابثين ؟ كما أن الصحافة قد فقدت تضامنها فخلت بين توفيق دياب وبين ما يلقى من معاملة اللصوص وقطاع الطريق ؟ ولكن لكلية الآداب حاميا هو فوق الحماة ، وكافيا هو فوق الكفاة ، أنشأها وتعهدها برعايته السامية فمن الذى يبلغ جلالة الملك أن كليته تلقى فى الجامعة ألوان الضيم ؟